# وضعية الآثار الإسلامية بمدينة تلمسان

أ.د. عبد الحميد حاجيات*

تعد مدينة تلمسان من أهم المواقع الأثرية بالجزائر . ورغم أنها وصفت بالمدينة الأزلية[١] ، أي المتوغلة في أعماق التاريخ حتى أنها يجهل تاريخ تأسيسها ولا يعلم من أسسها[٢]، فإننا لا نجد بها حاليا إلا الآثار الإسلامية ، بينما كانت من قواعد الرومان في الغرب الجزائري ،وأنها كانت تحمل عند الرومان اسم بوماريا ، وعند الأهالي البربر اسم أجادير ، أي السور الذي يحيط بالمدينة ويحميها .أما اسم تلمسان، فيبدو أنه يطلق علي موقع أجادير وعلي مواقع أخري مجاورة له ، وأنه أقدم أسماء هذه المدينة[٣] .

والجدير بالملاحظة أن تلمسان لم تحتفظ بآثارها القديمة ، بينما هي تمتلك حاليا أهم رصيد للآثار الإسلامية في الجزائر ،رغم ما تم تخريبه منها ن من جراء الحروب التي ما فتئت تنشب بينها وبين الدول المجاورة . فلم يبق من المسجد الذي بناه الأدارسة بأجادير[٤] إلا بقايا أسس الجدران التي كشفت عنها بعض الحفريات ، خلال السنوات الأخيرة .

غير أن التطورات السياسية ، التي أدت إلى تأسيس دولة المرابطين ، كان لها أثر هام بالنسبة لمدينة تلمسان ، حيث أن المرابطين جعلوا من هذه المدينة مقر ولاة المغرب الأوسط ، وشيدوا مدينة جديدة محاذية لموقع أجادير، سمّوها تاجرارت ، أي المحلة، وبنوا بها قصر الولاة والمسجد الأعظم ، الذي يعد أهم نموذج لمساجد المرابطين بالمغرب الأوسط ، ويشكل نموذجا لتأثر الفن المعماري المغربي بالفن الأندلسي .[٥]

ثم واجه المرابطين حركة الموحدين ، لكنهم غلبوا علي أمرهم ، واستولي هؤلاء علي مملكتهم بالمغرب والأندلس ، وبقيت تلمسان في عهد الموحدين مقر ولاتهم بالمغرب الأوسط . فتزايد نموها ، واتسع عمرانها ، وعني ولاتها بتحصينها ، وتشييد المباني الضخمة ، ورعاية النشاطات الاقتصادية والثقافية[٦] .

ولما ضعف شأن الموحدين ، ونشأت دولة الزيانيين بالمغرب الأوسط ، جعل هؤلاء من تلمسان عاصمة لهم . فتزايد نموها ، وقصدها العديد من رجال العلم وأرباب

---

* مترئيس قسم التاريخ بجامعة تلمسان(الجزائر).

[١] الادريسي ،المغرب العربي ، من كتاب " نزهة المشتاق " ، تحقيق محمد حاج صادق ، ص ١٠٠.

[٢] حول هذا الموضوع ، انظر : عبد الرحمن ابن خلدون ، العبر ، ج ٧ ، ص ١٥٦.

[٣] حول اسم تلمسان ، انظر : عبد الرحمن ابن خلدون ، م. س ، ج ٧، ص١٥٦-١٥٧ .

[٤] نفسه ، ج٧ ، ص١٥٧.

[٥] حول المسجد الأعظم بتلمسان ،انظر : رشيد بوروبية ، الجزائر في التاريخ ، ج٣ ، ص٣٤٩-٣٥٠ .

[٦] انظر : عبد الرحمن بن خلدون ،م .س .، ج٧،ص١٥٩-١٦٢ .

الصنائع والحرف ن ولجأ إليها كثير من الأندلسيين الذين ساهموا بقسط وافر في النشاطات الثقافية والفنية .[٧]

وعندئذ تكاثرت الانجازات المعمارية بها ، و من أبرزها تدعيم حصانة المدينة ببناء أسوار باب كشوطة غربا ، وتشييد مئذنة المسجد الأعظم بكل من أجادير وتاجرارت ، في عهد يغمراسن ابن زيّان ، مؤسس الدولة الزيّانية [٨]،ثم مسجد أبي الحسن التنسي ، أيام الأمير أبي سعيد عثمان بن يغمراسن، ثاني ملوك بني زيّان ، الذي لا يزال يشهد علي رقي الفن المعماري الإسلامي بالمغرب العربي ، خلال العهد الزيّاني[٩] ، ثم مدرسة أولاد الإمام ومسجد المشوار في عهد أبى حمّو موسى الأول (٧٠٧-٧١٨) [١٠].

ويعتبر عهد السلطان أبي تاشفين الأول (٧١٨-٧٣٧ هـ)،عهد ازدهار للمباني الزيّانية المتمثل في تشييد أفخم القصور الزيّانية وأشهرها ، مثل قصر أبي فهر ودار الملك ودار السرور [١١]، التي تم تخريبها علي يد المرينيين ، أثناء غارة لهم علي تلمسان سنة ٧٨٥هـ.[١٢]

وبناء المدرسة التاشفينية ، التي هدمتها السلطات الاستعمارية الفرنسية سنة ١٨٧٦م.[١٣]

واستمرت الانجازات المعمارية خلال القرن الثامن الهجري ، رغم الصراع الطويل الذي كان قائما بين الزيّانيين والمرينيين ، والذي بلغ أوجه في عهد السلطان أبي الحسن المريني ، واستطاع هذا الأخير أن يستولي علي تلمسان والمغرب الأوسط سنة ٧٣٧ هـ[١٤]. غير أن الإنجازات المعمارية لم تتوقف بتلمسان أيام الحكم المريني ، بل تمادت أشغال البناء مع توفير الأموال الكثيرة لتشييد المباني الفخمة . وتمركزت إنجازات أبي الحسن المريني حول موقعين خارج تلمسان ،أحدهما يشمل مدينة المنصورة غربا ،والآخر مجمّع العبّاد شرقا ، بجانب ضريح الولي الصالح أبي مدين شعيب الأشبيلي.

ولمباني هذا الموقع الأخير أهمية كبري ، حيث أنها تشمل أجمل ما لا يزال قائما بالقطر الجزائري من الآثار الإسلامية . وتتمثل هذه المباني في مسجد الشيخ أبي

---

[٧] نفسه ، ج٧، ص١٦٢-١٦٣ .

[٨] انظر : يحيى ابن خلدون ، بغية الرواد ،ج١ ، تحقيق عبد الحميد حاجيات ، ص٢٠٧.

[٩] نفسه ،ص٢٠٩ ، ٢٢٤ ؛G.et W.Marçais,Les monuments arabes de Tlemcen ,pp 170-84; R,Bourouiba, L'art religieux musulman en Algerie,pp 109-29.

[١٠] انظر: أبو عبد الله التنسي ، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ، من "نظم الدر والعقبان "،تحقيق محمود بو عياد ، ص ١٣٩؛

.Marçais,op.Cit,p.186. G.et W

[١١] انظر:يحيى بن خلدون ،م.س ، ص٢١٦؛أبو عبد الله التنسي ، م. س. ،ص١٤٠.

[١٢] انظر: عبد الرحمن ابن خلدون ،م. س.،ج٧، ص٢٩٦-٢٩٨.

[١٣] انظر:أبو عبد الله التنسي ، م. س.، ص١٤١ وهامش ١٧٥؛

G.et W .Marçais,op.Cit,p.302;R.Bourouiba,op.Cit,pp.135-36.

[١٤] انظر: عبد الرحمن ابن خلدون م. س.، ج٧، ص٢٢٥-٢٣٠.

مدين، الذي يعد تحفة من أعلي مستوي للتأنق والإبداع والمهارة الفنية بالمغرب العربي [١٥] ، وفي مدرسة العبّاد المحاذية للمسجد غربا ، وهي المدرسة الوحيدة التي لا تزال قائمة بتلمسان . وهذه المدرسة توجد الآن في حالة تدعو إلى القلق ، حيث انها تتطلب عملية ترميم عاجلة وهامة جدا [١٦] . ويوجد أيضا بجانب المسجد شرقا بقايا قصر بناه السلطان أبو الحسن المريني ، وقد تداعت بعض جدرانه ، وسقط العديد من زخارفه ن ويتطلب هذا القصر عناية خاصة من أجل الحفاظ علي ما تبقي منه وترميم ما يمكن ترميمه [١٧] .

أما موقع المنصورة ،فانه يشتمل علي بقايا المدينة التي شرع في تشييدها أبو الحسن يعقوب المريني أيام الحصار الطويل (٦٩٨-٧٠٦هـ)، علي مسافة حوالي كيلو مترين من تلمسان غربا ، ثم واصل أبو الحسن المريني بناءها . ولما استرجع الزيّانيون ملكهم بالمغرب عادوا إلى عاصمتهم، ثم هدم المباني المرينية بالمنصورة ، ما عدا بقايا مئذنة المسجد وبعض جدرانه وبقايا جدران السور . والظاهر أن مسجد المنصورة، الذي بني علي منوال جامع حسان بالرباط ، كان يفوق المسجد الأعظم بتلمسان من حيث المساحة ، ويمتاز بالخصائص الفنية التي تشاهد في كبار مساجد المغرب الإسلامي المعاصرة [١٨] .

ثم ظهر الخطر المريني من جديد بعد ذلك بقليل، أيام السلطان أبي عنان الذي بسط سلطته علي تلمسان والمغرب الأوسط سنة ٧٥٣هـ .فلم يحاول إعادة بناء ما هدم بالمنصورة ، وأمر بتشييد مسجد وزاوية خارج باب زير بتلمسان شمالا ، إزاء ضريح الولي الصالح أبي عبد الله الحلوي الأشبيلي [١٩] ، علي منوال مسجد أبي مدين [٢٠] . ولم يبق أثر للزاوية ، بينما لا يزال المسجد قائما ، إلا أنه أصيب ببعض الأضرار ، مما جعله في حاجة ماسة إلى الترميم والصيانة ولم يطل ملك أبي عنان المريني الذي توفي في آخر سنة ٧٥٩ هـ. وتلا ذلك فترة فوضي واضطرابات بالمغرب الأقصى ، الأمر الذي سمح لأبي حمّو موسى الثاني الزيّاني بإحياء الدولة الزيّانية ، وطرد المرينيين من تلمسان وسائر أنحاء المغرب الأوسط . واستمر بعد ذلك عداء المرينيين ، غير أنه أخذ يضعف شيئا فشيئا ، ولم تنجح محاولات المرينيين المتكررة قصد الاستيلاء علي تلمسان ، بل باءت بالفشل [٢١] . ورغم تعرض أبي حمّو الثاني إلى منافسة بعض الأمراء من أقاربه علي العرش ، وما نتج عن ذلك من حروب وفتن ، فانه استطاع أن

---

[١٥] انظر: رشيد بوربية، م. س.، ص٤٩٩-٥٠٠.

[١٦] انظر: R.Bourouiba,op.Cit,pp . 190-91.

[١٧] انظر: رشيد بوربية ،م.س.، ص٥٠٤.

[١٨] انظر: عبد الحميد حاجيات ، أبو حمو موسى الزياني ، ص٦٢-٦٤؛ رشيد بوربية ، م. س،ص١٤٩-١٥٠.

[١٩] انظر: رشيد بوربية ، ص ٥٠٣-٥٠٤.

[٢٠] حول المقارنة بين مسجد أبي عبد الله الحلوي ومسجدي المنصورة والعباد ،انظر: R.Bourouiba,op.Cit,pp: 159-85.

[٢١] انظر: عبد الرحمن ابن خلدون ،م.س .،ج٧، ص٢٥٦-٣٠٩.

من أقاربه علي العرش ، وما نتج عن ذلك من حروب وفتن ، فانه استطاع أن يعيد لتلمسان بعض رونقها . واليه يرجع الفضل في بناء المدرسة اليعقوبية ، وزاوية ومسجد بجانب ضريح شيّده لتخليد ذكرى أبيه أبي يعقوب وعمّيه الأميرين أبي سعيد وأبي ثابت ، غير بعيد عن باب ايلان بتلمسان . غير أنه لم يبق من هذه المباني حاليا إلا المسجد ، الذي تم تشييده علي منوال مسجدي أبي مدين وأبي عبد الله الحلوي ، لكنه أقل زخرفة واتقاناً .[٢٢]

والجدير بالملاحظة أن سقف هذا المسجد في الجانب الشرقي قد سقط حديثا ، فكان لهذا الحادث أثر في توعية المسئولين المعنيين بصيانة لآثار ، وتجري الآن عملية ترميمه كما يلاحظ أن تشييد هذا المسجد كان في فترة بداية تدهور الدولة الزيّانية ، شأنها في ذلك شأن الدولة المرينية بالمغرب الأقصى ، والدولة الحفصية بالمغرب الأدنى، ولذا فإن ما أنجز تشييده بعد ذلك من المباني الدينية وغيرها ، لا يبلغ مستوى ما سبق ذكره من حيث الجمال والإتقان والإبداع .

وبعد فيستنتج مما سبق ذكره أن وضعية هذه الآثار تدعو حاليا إلى العناية بها، والإقبال علي ترميم ما ساءت حاله منها ، واصبح مهددا بإتلاف زخارفه أو سقوط سقفه أو جدرانه ، أو غير ذلك من الأضرار التي ينبغي معالجتها علميا وعاجلا ، بالتعاون مع اختصاصين من البلدان الشقيقة والصديقة . ومن جهة أخرى ، فان ضرورة صيانتها وتفقد أحوالها باستمرار ، تتطلب تكوين تقنيين ورسامين ومهندسين متخصصين في الترميم والصيانة، في إطار برامج التكوين بالمؤسسات الجامعية المعنية بالآثار .

هذا بالإضافة إلى العمل علي توعية المسؤولين في مختلف القطاعات التي لها علاقة بالآثار، وحثهم علي تجنب الإهمال، و الحرص علي إقامة الحرّاس والأعوان المكلفين بالسهر علي حفظ التراث الأثري ، ومنع أعمال الإتلاف والسرقة والتخريب ، وتشييد المتاحف لإيداع التحف الأثرية ، وجعلها في متناول الباحثين لدراستها ، والجمهور العام للاطلاع عليها والاستفادة من التعرف عليها .

---

[٢٢] حول المدرسة اليعقوبية ، انظر : عبد الحميد حاجيات ، م. س.، ص ١٨١-١٨٣؛أبو عبد الله التنسي ، م.س.، ١٨٠؛ R.Bourouiba,op.Cit,p,136.